الباب السابع

من يحرم الرفق يحرم الخير كله

قال الإمام الغزالى فى الإحياء :

« يجب تعريفه باللطف من غير عنف .. وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق والتجهيل إيذاء ، وقلما أن يرضى إنسان أن ينسب إلى الجهل بالأمور ولا سيما بالشرع »

من يُحرم الرفق يحرم الخير كله

يترسخ فى أذهان كثير من الناس صورة المحتسب الناهى عن المنكر أنه إنسان جلف غليظ متجهم الوجه عالى الصوت ، سلوكه جاف وكلامه شديد ملىء بالسب والوعيد .

ولا يخفى أن بعضاً من سلوك من يتصدى للحسبة كانت هى السبب وراء رسوخ هذه الصورة فى الأذهان خاصة مع ما صاحب تصرفات هذا البعض من تجاوز فى الكلام والسلوك .

الحق أن من أهم آداب المحتسب التى نبه عليها العلماء وحذروا أشد التحذير من تجاهلها أنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « يكون متحلياً بالعلم والرفق والصبر » [١] .

فالمرء عادة معجب بصنيعه مفتون به ، لا يحب أن يخطئه أحد والنصيحة مُرة فى حلق المنصوح بما يتخيله من أنها تجهيل له ووصف بالقصور ، فلا ينبغى للمحتسب أن يزيد النصيحة مراراً بأسلوبه الجافى الغليظ لتكون أدعى للقبول ، وذلك أن الحسبة ليست هدفاً فى ذاتها ، وإنما هى وسيلة لتحقيق مصلحة المجتمع فى

(١) الحسبة فى الإسلام .

استنقاذ المحتسب عليه من المعصية والانحراف .. والغلظة من شأنها أن تدفع المنصوح لرد النصيحه وعدم التجاوب معها مما يفرغ موضوع الحسبة من المضمون ويضيع أثرها بل قد يحولها إلى استفزاز يزيد المنكر تفاقماً ، ويطور المشكلة إلى مشكلات بدلاً من حلها .

ولهذا كان صلى اللّه عليه وسلم القدوة فى هذا الباب حتى وصفه القرآن الكريم بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فأبرز القرآن أثر هذا الخلق النبوى - اللين - فى اجتماع الناس من حوله وإقبالهم على دعوته ، ونبه إلى أثر الغلظة والفظاظة فى انفضاض الناس وعدم استجابتهم للدعوة .

وهكذا فى عشرات الأحاديث النبوية والسيرة الشريفة تجد المصطفى صلى اللّه عليه وسلم يدعو الناس بقوله وفعله إلى هذا الأمر ويحذرهم من تركه ونسوق بعضاً من هديه منه :

عن أم المؤمنين عائشة رضى اللّه تعالى عنها عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « إن اللّه رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه » [١] .

(١) رواه مسلم [٢٥٩٣ / ٧٧] .

وعنها أيضاً : « إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه » [١] .

الحديثان يحملان من هدى النبوءة فى الترغيب فى الرفق صوراً متنوعة ، فإن كنت تسعى لحب اللّه ورضاه ففيه ، وإن كنت تطمع فى عطاياه الواسعة ففى الرفق أيضاً فإنه يعطى عليه ما لا يعطى على ما سواه ، وإن كنت إنما تريد تزيين عملك بين الناس وعند اللّه تعالى ليكون موضع القبول فليس ثم إلا الرفق ، فهو يحمل خير الدنيا فى جذب قلوب الناس ورضاهم وخير الآخرة فى إرضاء اللّه تعالى والاغتراف من عطاياه وفضله .

وفى الحديث أيضاً : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » [٢] .

يحرم خير الدنيا فيرفض الناس عمله وينفضوا من حوله ، ويتعرض للنبذ والزجر والإعراض ، ويحرم خير الآخرة ويحرم إرضاء اللّه تعالى وعظيم فضله ومنته .

---

(١) رواه مسلم [٢٥٩٤] .

(٢) رواه ابو داود [٤٨٠٩] وصححه الألبانى والحديث عند مسلم [٢٥٩٢] بدون كلمة « كله » كلاهما عن جرير رضى الله تعالى عنه .

إنه حديث يركز الخلاصة فى عبارة جامعة مانعة قصيرة تجمع كل تفاصيل الخيرات وأهمها تحقيق المصلحة المرجوة من المرفوق به ، وفى حديث أبى إمامة مرفوعاً : « إن اللّه عز وجل يحب الرفق ويرضاه ، ويعين عليه ما لا يعين على العنف » (١) .

هكذا وبوضوح العون الربانى مصاحب له ، وتحقيق الهدف المرجو إنما يكون بالتوفيق والعون الربانى .

ولا يخفى أن الكلمة الطيبة ثمرة من ثمرات حسن الخلق الذى جاءت الشريعة الغراء لكى تتمها ، ولذا فقد كثرت الآيات التى تحض عليها لتربية المجتمع المسلم على أن تكون من أخلاقه ومنها : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

ومنها أيضاً : ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٤] .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [٨ / ٩٥ / ٧٤٧٧] عن أبى إمامة رضى الله تعالى عنه ، والحديث عن أحمد [٤ / ٨٧] عن عبد الله بن مغفل رضى الله تعالى عنه بنحوه وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره .

وفى سيرة النبى صلى اللَّه عليه وسلم النماذج العملية الرائعة فى أدب الرفق فى الحسبة والنصح والتعليم من ذلك :

« أن فتى شاباً أتى النبى صلى اللَّه عليه وسلم فقال : يا نبى اللَّه أئذن لى بالزنا ، فصاح الناس به فقال صلى اللَّه عليه وسلم : « قربوه ادن فدنا حتى جلس بين يديه فقال له : أتحبه لأمك ؟ فقال : لا جعلنى اللَّه فداك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك قال : لا جعلنى الله فداك فقال له : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم أتحبه لأختك ... » [١] .

فما أرفقه صلى اللَّه عليه وسلم ، وهو يستمع إلى الطلب الوقح من هذا الشاب والذى أثار الصحابة كلهم من حوله فيتسع له صدره ، وينطلق بحلم ورفق يعلم الشاب حتى انتهى عن طلبه .. كيف يمكن أن نتوقع رد فعل الشاب لو أوقع به الصحابة - وقد هموا بذلك - فاستثاروا عناده فأصر على ما كان عليه ولم ينته ، وفيه أيضاً : « بال أعرابى فى المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم : « دعوه واريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » [٢] .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [/ ٢٥٧] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

(٢) رواه البخارى [٢١٧] .

هل هناك من منكر أشد من الجرأة على تنجيس مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهل هناك استفزاز أشد من فعل هذا الرجل ، ولكن النبى صلى اللّه عليه وسلم تلقى الأمر بنفسه السمحة الشريفة وعلمه برفق وعالج قضيته دون أن يخرج عن حلمه ورفقه .

والسير فى سيرة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم بحثاً عن الرفق فى معالم شخصيتة قد لا تتسع له هذه الوريقات ، ولكن تكفى الإشارة لننتقل بعدها إلى هدى المحتسبين فى الرفق من بعده صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك أن واعظاً وعظ المأمون أمير المؤمنين وعنف له القول فقال له المأمون : « أرفق فقد بعث اللّه من هو خير منك إلى من هو شر منى » ، وقال له : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . [طه : ٤٤] (١) .

وكم كان المأمون فقيهاً وهو يوجه ذلك الواعظ الذى يتجاوز بوعظه الهدى النبوى فألقمه هذه الحجة الملزمة ، وليس هناك من هو خير عند اللّه من موسى عليه السلام فى وقته ، وليس هناك أكفر ولا أشد شرا من فرعون ، وأكثر استحقاقاً للإغلاظ عليه منه - لعنه اللّه - ولكن التأديب الربانى لنبيه موسى عليه السلام يعلمنا

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى .

أن الرفق قرين الحسبة بغض النظر عن المحتسب عليه مسلماً كان أم فاسقاً أم كافراً ، ومن ذلك أيضاً ما حكاه أقضى القضاة الماوردى فى أحكامه السلطانية أن جبلة بن أشيم مر على رجل قد أسبل أزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال دعونى أنا أكفيكم فقال : يا ابن أخى إن لى إليك حاجة قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحب أن ترفع من أزارك قال : نعم وكرامة ، فرفعه ثم التفت الشيخ المعلم لتلاميذه ، وقال لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم (١) .

ولعل هذا ما يوضح لماذا قرن القرآن بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبين الصبر على ما يصيب المحتسب من جراء حسبته فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

فالصبر قرين الرفق والحلم ، والمحتسب كثيراً ما يتعرض لرد غير مناسب فإن كان غضوباً تحولت الحسبة إلى شجار كثيراً ما يغير من نية المحتسب إلى غضب لنفسه يضيع ثواب الحسبة أولاً ، وقد

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى .

يزيد المنكر منكراً ، وقد تداول الفقهاء هذه القضية من جوانبها فى أسفارهم وتفرد العلامة الغزالى بمبحث جيد يدل على عظم غوصه فى أغوار النفس البشرية ، نشير إلى مقتطفات منه إذ يقول : « فيجب تعريفه باللطف من غير عنف .. وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق .. والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان أن ينسب إلى الجهل بالأمور ولا سيما بالشرع » (١) .

ويضيف : « والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية » (٢) .

هو يشير إلى طبيعة بشرية لا يكاد ينجو منها إلا من رحمه ربى ، فالإنسان بطبعه مفتون بعقله يرفض أن ينسب إلى الجهل ، وإن كان أجهل الناس - ويرفض أن ينسب للفسق والمعصية - وإن كان أفضل الناس - بل كثيراً ما يدعى العلم والتدين والفهم فى الدين دون أن يكون له أى نصيب منهما خاصة إذا ما نصحه ناصح بما يحمله هذا النصح من إشعار بدونية المنصوح ، ويضيف رحمه الله معنى آخر فيقول : « وإذا كان التعريف كشفاً للعورة

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) إحياء علوم الدين .

مؤذياً للقلب فلابد وإن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق ، وهكذا يتلطف به ليحصل له التعريف من غير إيذاء فإن إيذاء المسلم حرام محذور وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل به محذور إيذاء المسلم - مع الاستغناء عنه - فقد غسل الدم بالبول » [١] .

والمعنى الرشيق فىإبراز عدم الرفق كمنكر آخر باعتباره إيذاء للمسلم والإيذاء للمسلمين منهى عنه - وهو منكر لا يقل عن المنكر الأول وبالتالى ستتحول الحسبة بدون الرفق إلى عملية استبدال المنكر الجديد بالمنكر السابق - هذا إذا أُزيل بالفعل المنكر السابق ، وإلا فقد صارا منكرين وعملية الاستبدال هذه مثل الذى يغسل النجاسة بنجاسة فيضيف نجاسة جديدة أو يزيل الأولى ليضع الثانية .

ثم يشير العلامة الغزالى إلى آفة جديدة وخطيرة تتسرب إلى نفوس المحتسبين أثناء وعظهم فيقول : « وهاهنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها فإنها مهلكة ، وهى أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ، فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار

---

(١) المرجع السابق .

التميز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل ، فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح فى نفسه من المنكر الذى يعترض عليه ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه »[١] .

وهى آفة كثيراً ما يغفل عنها المحتسب ولا ينتبه إليها ، بينما قد تكون محبطة لعمله مضيعة لثوابه من حيث أراد المثوبة ، بل لعل عقوبتها قد تكون أشد من المنكر المحتسب فيه لما فيها من التكبر والاستعلاء والاستطالة على الناس ، ولا يخفى أن هذه الآفة لا يكاد يسلم منها أحد لأن الاحتكام على الناس له لذة فى النفس ، وكذا ينبغى على المحتسب أن يراقب نفسه أشد المراقبة لحمايتها من هذه الآفة لأنها من المهلكات ، « فلا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، كما جاء فى الحديث[٢] .

وعلامة إفلاته من هذه الآفة كما يقول الغزالى : « أن يكون امتناع المحتسب عليه بنفسه أو بإنكار غيره عليه أحب إليه من أن يمتنع باحتسابه ، وأن تكون الحسبة شاقة على نفسه يود أن يكفيه أحد إياها وإلا فليحتسب أولاً على نفسه قبل أن يحتسب على غيره » .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) رواه مسلم [٩١ / ١٤٧] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه

والحق أن هذا لا زال فيه الكثير والكثير من النماذج التى تربت فى مدرسة النبوة وتعلمت الرفق والحلم ، وأمرت ونهت فكان لها القبول والاستجابة وكان دعوتها بالوعظ الحسن والحكمة الحليمة الرفيقة مثال للتقبل .

وكم من عصاة ومنحرفين تركوا عصيانهم استجابة لهم .

وكثير من النماذج التى تجاهلت هذا الهدى النبوى ، واغلظت للناس وتعالت واستطالت فكانت النفرة منهم والمفسدة التى أصابتهم ، وأصابت غيرهم تعميماً للعقوبة الربانية .

ولهؤلاء جميعاً نختم بالحديث النبوى : « من كان آمراً بمعروف فليكن أمره ذلك بمعروف » (١) .

وبالحديث : « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به ، رفيق فيما ينهى عنه ، حليم فيما يأمر به ، حليم فيما ينهى عنه ، فقيه فما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه » (٢) .

○ ○ ○

---

(١) رواه القضاعى فى مسند الشهاب [٤٦٥/٢٨٥/١]

(٢) ذكره الغزالى فى الإحياء . وقال الحافظ العراقى : لم أجده هكذا .